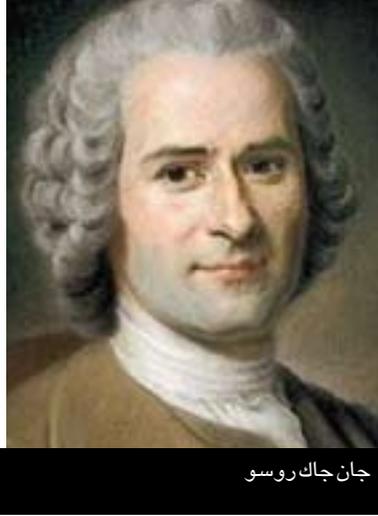


قصة تطور المفاهيم معرّفياً وصلتها بتقدم العمران

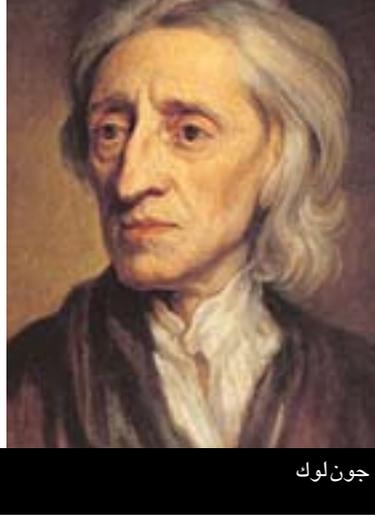
# التاريخ السياسي لقضايا حقوق الإنسان



توماس جيفرسون



جان جاك روسو



جون لوك

« الوسط - وليد نويهض

□ مفردات كثيرة نستخدمها في عصرنا من دون إدراك لمعناها الحقوقي وقيمتها الإنسانية والكلفة التي دفعها البشر في تاريخهم للتوصل إلى صوغها في مصطلحات تحمل دلالات تشير إلى العدالة والمساواة والحرية. فالكلام عن العبودية والغاء التمييز وتحرير المرأة وحقوق الأقليات وحق العمل وتحقيق الكرامة ومسئولية الأفراد والتسامح الديني والملكية الخاصة وحرية الصحافة والسوق الحرة وحفظ المصالح وغيرها من مفردات تستخدم الآن خطابات حماسية من دون وعي لتاريخها وتلك المعطيات المكانية والزمانية التي أطلقتها وزودتها بديناميات نجحت في النهاية في تحويلها إلى نصوص دستورية تلزم الدول بتطبيقها تشريعياً وقضائياً.

مسألة حقوق الإنسان التي صاغها الإعلان الدولي الصادر عن الأمم المتحدة قبل 60 عاماً جاءت محصلة التطور العمراني - المعرفي الذي عاشته البشرية وتحديداً أوروبا بعد القرن الخامس عشر. قبل هذا الزمن كانت أوروبا قارة عادية لا تختلف كثيراً عن حضارات العالم بل يمكن ترتيبها في درجة متدنية في نموها قياساً بالصين والهند والعالم الإسلامي.

خلال القرن الخامس عشر أخذت أوروبا تكتشف طريقها بعد أن ضربها مرض الطاعون في القرن الرابع عشر وأودى بحياة ربع سكانها. وبعد أن تغلبت على المرض الأصفر أخذت تنجس نحو البحث عن منافذ بحرية وخطوط تجارة بديلة تساعدها على تكوين قواعد اقتصادية مستقلة عن جاراتها المسلم.

الاكتشافات الجغرافية كانت خطوة أولى نحو ارتفاع درجات التقدم لاحقاً. فهذه الاكتشافات فتحت أمام القارة مسارات النمو الذاتي وتراكم الثروة ما ساهم في توفير قاعدة عمرانية للتفكير في صوغ إطارات تضمن الاستقرار والرفاهية. والتفكير في المستقبل أعطى شرارة للعقل للبحث في وسائل معرفية تدفع بالإنسان نحو رؤية تتجاوز حدود القرية أو الدائرة الصغيرة التي يتحرك بها.

الجغرافيا البحرية التي انفتحت على آفاق دولية في القرن الخامس عشر عززت قوة السفينة ودورها في نقل البضاعة، كما أنها ساهمت في تطوير الاحتكاك الثقافي وصل المعرفة بأدوات قومية وأبعاد إنسانية.

بعد هذه الخطوة بدأ الإنسان الأوروبي يتحرك لكسر الأطارات الكنسية التقليدية التي كانت تكبل وعيه وتنقله بالمخاوف والمجهول. فجاءت الحركة البروتستانتية التي وضع حجر أساسها الداعية مارتن لوثر في القرن السادس عشر. وبدأت حركة التنوير تشق طريقها من الدين (المسيحية) إلى الكنيسة (المؤسسية) حين طالب لوثر بالعودة إلى الأصول والجدور ومنع الجابوية (الفاتكان) من التدخل اليومي في حياة الناس.

الخطوة الثانية جاءت من الدين لما يمتلكه من شرعية تاريخية تعطيه قوة دفع للتوحيد والتجاوز وهذا ما أعطى اللوثرية زخماً شعبوياً هدد سلطة الفاتكان وأدى لاحقاً إلى كسر الكنيسة الكاثوليكية وتشطيرها إلى نصفين ما ساهم في توليد انقسامات وتجاوزات أهلية دفعت القارة إلى الدخول في حروب دينية مزقت فرنسا وألمانيا وإسبانيا وإيطاليا وهولندا. امتدت الحروب الدينية نحو مئة عام قتل وجرح وشرذ خلالها الملايين من البشر. إلا أن أوروبا التي عاشت الأهوال المدمرة من العام 1550 إلى العام 1648 خرجت بشخصية جديدة بعد أن أنهكت قواها وفشلت كل الأطراف المتقاتلة في تسجيل انتصار كلي ونهائي. هذا التوازن في المعادلة الكاثوليكية - البروتستانتية شجع على نمو رغبة في الهدوء والاستقرار ودعوات إلى توقيع اتفاقات سلمية بين الأطراف.

القومية والدين

انتهاء الحروب الأهلية - الدينية بالسلام الاجتماعي ادخل أوروبا عتوة في عصر الدولة المدنية والدعوة القومية. فمذ القرن السابع عشر

سيظهر إلى سطح الفلسفة السياسية مفهوم «المواطن». فالفرد لم يعد رعية تابع للكنيسة البابوية وإنما إنسان مستقل يرتبط بالدولة الوطنية ما أدى إلى تراجع علاقة الفرد بالهوية الدينية مقابل تطور المواطنة على أساس قومي. فالدين لم يعد يشكل أساس العلاقة بين الفرد والسلطة السياسية بعد أن اقتصر دوره على الروحانية والسلوك الاجتماعي. وهكذا بدأت تشهد ساحات أوروبا ظهور جمهوريات وممالك دستورية تأسست على قاعدة التوحيد القومي.

المرحلة القومية اشتد ساعدها بعد تجاوز أوروبا تداعيات انتفاضات وثورات القرنين السادس عشر والسابع عشر. إلا أن تلك المرحلة القومية لم تكن سلمية أيضاً، ولكنها ترافقت مع نهوض الطباعة وحدث ثورة علمية تمثلت في اكتشافات كوبرنيكس وغاليليو وصولاً إلى إسحق نيوتن. فالعلم بدأ يشق طريقه وريداً تاركاً تأثيراته المعرفية على الفلسفة السياسية ما أعطى المفاهيم الفكرية قوة دفع إضافية ساهمت في تطوير مفردات وإعادة تأسيسها على منطلقات قيمة جديدة.

دخلت المرحلة القومية لاحقاً في منعطفات داخلية شجعت الدول على الانزلاق في حروب دفاعاً عن المصالح والحقوق. فالحروب الداخلية (توحيد السوق القومية) والخارجية (الدفاع عن الحدود والمصالح) لم تعد دينية بقدر ما أصبحت اقتصادية ونفعية. وهذا النوع من التطور الذي بلغته أوروبا في القرن السابع عشر دفع المعرفة نحو البحث عن صيغ تتناسب مع حاجات العصر ومتطلباته سواء على مستوى تصحيح العلاقة بين المواطن والدولة أو بين الدولة والكنيسة أو بين الدولة والدول المنافسة. في هذه المرحلة، مرحلة البحث عن هوية متجانسة مع التطور العمراني اشتهرت مقولة ديكار (1591-1650) عن العقل (أنا أفكر إذا أنا موجود) وظهرت كتابات توماس هوبز (1588-1679) عن الدولة وخضوع البشر للحاكم وصاغ ريتشارد أوفرتون (1600-1660) نظريته عن الطبيعة الإنسانية والحق الطبيعي ولكل إنسان ملكية ذاتية، وأيضاً وضع سبينوزا (1632-1677) قواعد عقلانية للتفكير الديني وعلاقة الإنسان بالخالق.

أفكار ديكار و هوبز وأوفرتون وسبينوزا كانت بدايات النهضة الفكرية وظهرت فلسفة سياسية معاصرة تتعامل مع الواقع برؤية عقلانية تعتمد على الطبيعة منطلقاً للقراءة التاريخية. فهذه البدايات التأسيسية شكلت مادة خام للبناء عليها وتأسيس هرمية معرفية أشعلت العقول وترافقت أو توافقت مع الانتفاضات والحروب الأهلية والتوحيدية والاستقلالية التي شهدتها تباعاً كل من إنجلترا (بريطانيا) والولايات المتحدة وفرنسا.

الفكر الحديث الذي انتقل لاحقاً من حدوده الجغرافية القومية إلى

إطاره العالمي تأسس على الثورات الثلاث (بريطانيا، أميركا، وفرنسا) التي أطلقت شرارات دولية كان لها أثرها الأيديولوجي في تصدير تلك المفردات والمصطلحات إلى مختلف أطراف الكون.

بريطانيا أولاً

في البدء كانت بريطانيا السبّاقة، فمنها بدأت حرب التوحيد (انضمام سكوتلندا إلى إنجلترا) وتم انتفاضة جمهورية قادها أوليفر كرومويل انتهت بحرب أهلية وعودة بريطانيا إلى الملكية الدستورية في العام 1688. في هذه الفترة وبعدها ظهرت كتابات جون لوك (1632-1704) الذي أكد على الفردية والملكية الخاصة وحرية الصحافة والسوق الحرة والمساواة. لوك كان من الأوائل الذين وضعوا قواعد نظرية للفلسفة السياسية المعاصرة حين أكد على أن حرية الضمير حق طبيعي لكل إنسان وبأن الناس جميعاً يحكم الطبيعة أحراراً ومتساوين ومستقلين.

مسألة «الحقوق» في طبيعتها المعاصرة بدأت في بريطانيا حين صدرت في وثيقة في العام 1688. وأهمية لوك في هذا المضمار أن أفكاره ساهمت في وضع الأصول الأولى لوثيقة «الحقوق» ما أدى إلى تحويل بريطانيا إلى نموذج يحتذى في أوروبا والعالم الجديد (أميركا).

إلى كتابات لوك عن التسامح والتفهم والدولة الدستورية عرفت أوروبا الكثير من الفلاسفة السياسيين. ففي سكوتلندا ظهر ديفيد هيوم (1711-1777) ونظريته عن الاجتماع البشري. وخرج كتاب الاقتصادي آدم سميث (1723-1790) عن السوق و«ثروة الأمم» ومقولات العدل أساس المجتمع المدني والمصلحة المشتركة وتقاسم العمل وتعاون البشر. وانبثقت كتابات توماس باين (1737-1809) عن حقوق الإنسان والحق الطبيعي بالعدالة (البشر متساوين في نظام الخلق).

كل هذه الروافد الفكرية البريطانية - الأوروبية أخذت تتجمع في أميركا (العالم الجديد) وبدأت تشق طريقها لتوليد انتفاضة استقلال ضد الحكم الاستعماري البريطاني. وشاءت المصادفة أن تلعب أفكار لوك دورها في التأثير على عقول قادة الثورة الأمريكية فأقدم توماس جيفرسون (1743-1826) على كتابة وثيقة إعلان الاستقلال في يوليو/ تموز 1776 التي تضمنت فقرات تشير إلى الحقوق الطبيعية للإنسان (الناس خلقوا متساوين) وواجب الدولة في حماية الحقوق.

أهمية «وثيقة الاستقلال» الأميركية تعادل أهمية «وثيقة الحقوق» البريطانية من جانب تضمينها مصطلحات شكلت قواعد تفكير لرجال الدولة وفقهاء القانون. فالنائب جيفرسون أصبح لاحقاً رئيساً للجمهورية (الولايات المتحدة) وساهم في وضع دستورها الذي نهضت عليه الدولة

▶ حقوق الإنسان لا يمكن انتزاعها؛ فليس من حق أحد أن يحرم شخصاً آخر من حقوق الإنسان حتى لو لم تعترف بها قوانين بلده، أو عندما

تنتهكها تلك القوانين... فحقوق الإنسان ثابتة «وغير قابلة للتصرف».

▶ كي يعيش جميع الناس بكرامة، فإنه يحق لهم أن يتمتعوا بالحرية والأمن، وبمستويات معيشة لا تفتقر... فحقوق الإنسان «غير قابلة للتجزؤ».